الليل والقنديل

الضوء مرآة الحقيقة وممحاة الخوف

....

موضوع المسرحية هو الضوء والظلمة ومكانتهما في حياة الناس والصراع بينهما متمثلاً بتناقض الشخصيات في الضيعة، التي يصنع أهلها قناديل متميزة يشتريها أهالي الجرد والسهل والمزارع يبددِّون بها عتمة الليل فتطول فترات عملهم وتمتُّعِهم بالحياة اللذيذة والليالي التي يغيب فيها ضوء القمر.

وإذا كانت فكرة استخدام صناعة (قنديل الزيت المُلوَّن) وسيلة لعرض فلسفة النور والظلمة بمفهومها الرحباني، أوحت بها الحياة في القرى الجبلية في أواسط القرن الماضي والتي اعتمدت على الشموع والقناديل والفوانيس البسيطة التقليدية لإنارة منازلهم، فإن (الليل والقنديل) نجحت في تحميل القنديل وضوئه البُعد الفلسفي المرتبط بحياة الناس وحبهم للخير والسلامة والطمأنينة والشفافية وللضوء تتزيَّن تحته سهراتُهم بالمحبة والحيوية والتفاؤل. ولتصوير التضاد تَظهرُ الشخصيات الظلامية التي تقاتل في الليل وتكره من ينير عتمتَه.

ومزدوجة النور والظلمة، عنصرَي البنية الكونية، لا يقلقها الموقف النفسي الذي يجعلنا نحب النهار لضوئه وننتظر انبلاج صباحه السعيد.. لأن الحياة العملية تتطلب نوراً نتلمَّس بفضله الأشياء وأنفسنا والطريق ونقهر الخوف الذي تثيره العتمة التي تبعدنا عن الحقيقة. في الحياة الطبيعية يرتبط العمل لدى كافة الكائنات بالنهار ويُترك الليل بعتمته إلى الراحة والنوم.

....

بعد مقدمة موسيقية قصيرة تخرج منتورة (فيروز) من خيمتها لتضيء أحد القناديل المعلقة في عمود الخيمة تنكسر بفضْله العتمة وتنتشر في فراغ الساحة أشعةٌ لوَّنتْها صفائحُ الزجاج الملون التي عشَّقت جدران القنديل الجميل المتقن، وتغني:

منتورة: ضَوِّي يا هالقَنْديل
عَ بْيوت كِلّ النَّاس عَ لَيْل كِلّ النَّاس

....

(هَوْلـو) كان حَدثاً ثمَّ تحوَّل إلى حكاية فأصبح مصدر قلق الناس وخوفهم.. وهاهم يشكِّكون في أن يسمح هذا الشخص المنبوذ لأهل الضيعة بإنارة الممرق والحد من تحركاته مع جماعته في الليل المظلم. ولكن منتورة لا تفقد الأمل.. فضَّوء القنديل الكبير سيغلب هولو وسيشع نوره قاهراً الليل ورجال العتمة.

ويتساءل نصار عن السر وراء فكرة الضيعة وعزمها على تبديد عتمة المفرق بقنديل كبير، مبدياً تعجُّبَه.. فالعتمة هي العدوُّ القوي المتسلِّط دائماً على الإنسان يكبِّله ويثير خوفه وقلقه فهل ينتصر القنديل على العتمة؟

نصَّار: ضَيْعتْكُنْ يا منتورة
شو تْهَيَّأ بِبالا تَ قالتْ لَحالا بَـدِّي قاتِلْ هالْلَّيْل
هالضَّـو الأسْـوَد
هـالْمِـتْجَـمِّـدْ الْجايي عَ مْلاييـن الْخَيْل
وْ صارْلو مـلاييـن السِّنيـن
بْيِتْسَـلْطَـنْ بِـالْـوِدْيـان وْوين ماكـان
وْبِقَـلْب الإنسـان

....

أوركسترا المسرح الغنائي الرحباني ليست كالفرق الموسيقية العادية المصاحبة للأغاني الشرقية، وإن تنوَّعتْ آلاتها، ولا هي كالفرق المصاحبة للمسرح التقليدي غير الغنائي والذي تصاحبه الفرقة لأداء موسيقا تصويرية.. إن الموسيقا في المسرح الغنائي الرحباني هي العنصر الأساس لإخراج النص الملحَّن للمشاهدين، سواء كان هذا النص أغنية أم حواراً متعدِّدَ الأشكال.. وما تقدمه الأوركسترا الرحبانية في الفواصل بين المقاطع المتتالية ليس مجرَّدَ ملء فراغ يستأنف المغنِّي بعده المقطع التالي وإنما هو مقطع من الأغنية لا يتجزَّأ عنها وبه تزداد جمالاً وتكتمل.. إننا غالباً نجد أنفسنا أمام جُمَل تعبيرية وسيلة بعضها حنجرة المغني وإيحاءاته ووسيلة بعضها الآخر مكونات الفرقة الموسيقية التي تصل بقدرتها الفائقة إلى عقولنا وأحاسيسنا صوراً ومعانٍ وتخيُّلات وأخباراً قد لا تفي بغرَضها كلمات الأغنية.

فالموسيقا بين المقطعين لا يجوز أن تكون أقلَّ رومانسية وتأثيراً من الصورة التي توحي بها الكلمات، خاصة عندما يضيف الصوت الجميل والقدرة الخارقة لصاحبته آفاقاً أرحب للتخيُّل.. فإذا كانت الصورة (اعْمَلِّي عنْدك خَيْمة.. مْن جْوانح الغَيْمة.. بالحُبِّ مْضوَّاية) فكيف ستكون الموسيقا يا ترى؟!

/ بُكْرا مَـشـاويْـري لـعَنْدك بْـ تِـحِملْني
وْ عنَّكْ يا حبيـبـي ما حَـدا بْيِسْأَلْـنـي / (٢)

هِنـِّي عـَوَّقـُـــوني بِشِغـْلي وْنـَطـَّروني
وْقـَرَّبِـتْ الـحـْكـــاية وْجــايـي أنا جـــايي
جـــــــــــايـــي

....

وتمهد الأوركسترا لموَّال نصري التقليدي المؤلف من أربعة أشطر غزلية ينطلق بنهايته إلى أغنية سريعة ترافقها دبكة جميلة تؤديها فرقة من الفتيان والفتيات تـُردِّد فـي نفس الوقت لازمة الأغنية بجو من المرح والسعادة إعراباً عن الرضى وزوال الزعل بين الحبيبين:

نصري: يا حلـْوة اللـِّي شـَعرْهـا زيـْنِـة وْلـَفـْتاتـْها بـْتجـْرحْ على الـْهِينة
وْلمِّنْ لـْبسْتي هاكِ الـْفِستــــان لـَيـْشْ بَطـَّـلـْتـي تـْحـــاكينـــي
يــامِّ الأساور يــامِّ الأســــاور والشـَّعرْ طايرْ والهـَوا طــايرْ

الفرقة: يــامِّ الأساور يــامِّ الأســــاور

....

تمتلىء الأعمال المسرحية للأخوين رحباني بالعديد من الشخصيات التي تمَّ توظيفها لعرض الجوانب السلبية والشريرة فـي المجتمع والمناقضة لما يتحلـَّى به من صفات المحبة والتعاون وروح الإلفة لدى النسبة العظمى من أفراده. وتأتي شخصية البطل السلبي على الدوام فـي إطار الموضوع أو مرادفة له بانسجام مع روح الدراما ووحدة نسيجها. ولا يقتصر عرض الحوارات والأحداث التي يقوم بها أصحاب هذه الأدوار على إبراز الجانب السلبي المقاوم للخير والمحبة أو الذي يخلق حالات الفتنة والنزاع ويؤجج الصراعات وغير ذلك وإنما يستخدم فـي عرض الجدليات والمتناقضات التي يكتسب المجتمع بتفاعله معها حيويته وأسباب تطوره. وانسجاماً مع مقولة (بِضـِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ) فإن تمييز الخير والمحبة والرضى والسلم والتعاون والمساواة والغـَيْريـِّة وفوائد كلِّ هذه فـي بناء مجتمع عادل معافى يسير فـي طريق التقدم يأتي عن طريق عرض الصراع والتناحر بين الخير والشر.. العدل والطـُّغيان.. الحرية والعبودية.. الحب والكراهية.. التسامح والحقد إلخ... ويتكرَّس فـي الأدب الرحباني مبدأ معالجة العفن بالملح، ونقصد هنا ملح الأرض النقي وملاحة الناس الأنقياء.. وإن تكلـَّلت مثل تلك المعالجة بشيء من الطوباوية.

من هذا المنظار أخذ البعض على الأخوين رحباني نزوعهما إلى الابتعاد عن معـاقبة الأشـرار (فهد العابور فـي "دواليب الهـوا"، فضلو وعيد فـي "بيَّـاع الخـواتم" وأجهزة القمع فـي "الشـَّخص"

و"يعيش يعيش" و"صح النوم" إلخ..) ونتساءل فيما إذا كانت نهايةٌ موجعة للشخصيات الشريرة، تقترحها وتكون أداتَها الشخصياتُ التي اتَّسمت طيلة مَشاهد العمل المسرحي بوداعتها وحسنها، ضدَّ ممثلي قوى الشر، ستضيف إلى العمل قيمة أو ستزيد من إعجاب المُشاهد وقناعته أو أنها تعكس رؤية واقعية!!.

....

هَوْلُو: يامنتورة صَوتِكْ شو بْيَعْمِلْ فيِّي
بْيِأمرْني
بْيسْحرْني بْيطْرِبْني مِدْري لَوَيْن بياخِدْني

ويخرج هَوْلُو بقلبه الكسير حائراً بين مشاعر الحب لمنتورة التي حمتْه من غضب أهل ضيعتها وملَكَتْ قلبه برقتها وحنانها وعذوبة كلماتها وصوتها، من جهة، وطريقة حياته التي أصبح لها أسيراً فأبعدته عن الناس وعن المشاعر فصار عدوَّ الضوءُ وحليفَه العتمة ومسكنَه الكهوفُ..

وتبقى منتورة شاردة في حقيقة هَوْلو وضعفه أمامها ومازالتْ تأمل بأن تتمكن من إعادته إلى الحياة السليمة العادية، يحب الناسَ ويحبونه ويعمل معهم من أجل الخير في وضح النهار دونما تستُّر وراء الظلام.. ومازالت ثِقَتُها بانتصار الخير والنور والمحبة كبيرة..

إننا هنا أمام رؤية رحبانية عاقلة حكيمة ترى في المجتمع وبين الناس ما يجمع بين الأفراد من خيوط على طريق الخير والنور وتطالب بهدم الجدران الفاصلة والتي تحول دون سلامة العيش.. ويظهر الأبطال الرحبانيون متفائلين بإمكانية إعادة من انحرف من الناس إلى جادة الصواب، وسنرى بعد قليل اعتماد المؤلفَين على البطل السلبي في حلِّ العقدة الدرامية وصولاً إلى الهدف المنشود.

من ناحية أخرى نجد أن الأخوين رحباني يشيران للمرة الأولى إلى دور الفن الإيجابي في التأثير على المنحرفين وردّهم إلى ساحة النور. فصوت منتورة يسحر هولو ويرشده، لا بل يأمره. وسيتكرَّر هذا الموقف بعد ثلاث سنوات في مسرحية "أيام فخر الدين" التي أسنِد فيه دورٌ عظيم للفتاة (عطر الليل) في دعم الكفاح الوطني وحشد الناس لدعمه.